الوظيفة التجارية بالمركز التاريخي لمدينة قسنطينة وعوامل تطورها

زرقان زينب و بن ايدير فتيحة

كلية الهندسة المعمارية والتعمير، جامعة قسنطينة 3 -الجزائر

تاريخ الاستلام 15/ 02 /2018 – تاريخ القبول 03/ 06 /2018

ملخص

المدينة القديمة لقسنطينة هي مركز المدينة والمركز التاريخي لها، تعتبر تراثا ومعلما تاريخيا يشكل ذاكرتها بكل مكوناتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى كل المكتسبات التاريخية التقليدية القيمة فيها، يعتبر النشاط التجاري الوظيفة الرئيسية لها. المدينة القديمة لقسنطينة لم تفقد حتى الآن حيويتها وقيمتها كمركز المدينة، بل حافظت على هيمنتها ووزنها التجاري. في هذا البحث قمنا بتحليل البنية التجارية للمدينة القديمة تحليلا كميا وكيفيا مع دراسة تطورها، بهدف التعرف على واقع النشاط التجاري في المنطقة وإدراك أهم تغيرات، تطورات هذه الوظيفة والعوامل المساعدة لها في ذلك. وما توصلنا إليه هو أن الوظيفة التجارية بالمدينة القديمة تطورت تطوراً ملحوظاً ظهر على عدة أشكال تقليدية وحديثة بتأثير عدّة عوامل تضافرت وكونت الشكل النهائي للوظيفة التجارية لديها، كالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها البلاد انعكاسا للمستوى المعيشي المتقدم للسكان وتغير العادات الاستهلاكية لهم، كذلك تحول اغلب المباني ذات الوظيفة السكنية إلى وظائف تجارية. إضافة إلى الأسواق القديمة والتقليدية التي مازالت مستمرة في تأدية وظائفها التجارية أصبح هناك أشكال جديدة لتعمير التجاري تنتشر فيها نشاطات جديدة مستقطبة، كظاهرة "البازارات"؛ التي تشهد تطورا كبيرا متواصلا وتؤثر على صورة وتراث المدينة القديمة.

الكلمات المفتاحية: المدينة القديمة– قسنطينة –مركز المدينة –المركز التاريخي–النشاط التجاري– تراث– البازارات

Résumé

La vieille ville de Constantine est son « centre historique » et représente une partie du « centre-ville ». Elle est aussi un patrimoine et un repère historique. Elle constitue la mémoire de cette ville avec toutes ses composantes culturelles, sociales et économiques. En plus de toutes ces valeurs historiques et traditionnelles, l'activité commerciale est considérée sa fonction principale. La Medina de Constantine n'a jusqu'à présent pas perdu de sa vitalité et de sa valeur en tant que centre-ville. Elle a toujours gardé son poids étant habitée et ayant ses activités commerciales. Dans cette recherche, nous avons analysé la structure commerciale de la vieille ville quantitativement et qualitativement, avec une étude de son développement, afin d'identifier la réalité de l'activité commerciale dans la zone d'étude et de comprendre les changements les plus importants ; les développements de cette fonction et les facteurs influents. Nous avons appris que la fonction commerciale dans la Medina a évolué considérablement les formes traditionnelles et modernes cohabitent par plusieurs facteurs combinés, tels que les changements sociaux et économiques du pays en raison du niveau de vie avancé et le changement des habitudes de consommation des citoyens. Les marchés traditionnels sont toujours fonctionnels dans la vieille ville. La fonction commerciale progresse toujours au détriment de la fonction résidentielle qui régresse inexorablement, de nombreux immeubles d'habitation sont transformés en "bazars" pour recevoir des fonctions commerciales. Ce qui renforce davantage la polarisation déjà très forte de la ville et dont l'impact est très fort sur le patrimoine et l'environnement.

Mots clés : *La vieille ville - Constantine - centre-ville - centre historique - l'activité commerciale - patrimoine - bazars*

Abstract

The Medina of Constantine is the center of the city and its historical center, it constitutes the memory of this city with all these cultural and social and economic components. In addition to all these historical and traditional values, commercial activity is considered its main function. The Medina did not lose until now its vitality and its value as city center. She always kept her weight being lived and having her commercial activities. In this research, we analyzed the commercial structure of the Medina in quantitative and qualitative analysis and studied its development, in order to identify the reality of commercial activity in the area of study and understand the most important changes, developments of this function and the influencing factors. We learned that the commercial function in the Medina has evolved considerably the traditional and modern forms coexist by several factors combined, such as the social and economic changes of the country due to the advanced standard of living and the change in consumer habits of citizens, also the transformation of most of the residential buildings to commercial functions. In addition to the old and traditional markets that continue to perform their functions, there are new forms of commercial reconstruction in which new polarized activities, such as the phenomenon of "bazaars", which is witnessing a great and continuous development and negatively affected the image and heritage of the Medina.

Keywords: *The Medina- Constantine* - center of the city- *historical center- Commercial activity- heritage- bazaars*

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1, الجزائر,2018

المقدمة: على مدى التاريخ نشأت المدن كمراكز تجارية وإدارية للمستقرات البشرية من حولها، ففي المغرب العربي يستعمل مصطلح "المدينة العتيقة" على النواة أو المدينة القديمة التي وجدت قبل أن تبنى الأحياء الحديثة المجاورة لها، إذ يبرز النسيج العمراني القديم بها مستوى الحضارات المتعاقبة عليها، فهي تشكل تراثا ومعلما تاريخيا يعكس حضارة ورقي تلك المدينة في الماضي والحاضر في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، مما جعلها محل اهتمام الكثير من الدول وموضوع للعديد من الدراسات. صنفت اغلب هذه المدن المغاربية العتيقة كتراث وطني أو تراث عالمي كما هو الحال بالنسبة للمدينة القديمة لقسنطينة التي صنفت كتراث وطني سنة 2002.

تُعدّ الوظيفة التجارية من العناصر الأساسية للمدينة، فهي تؤثر في المجتمع ويتأثر بها تأثيراً مباشراً. «فالتجارة تتطور باستمرار لتلبية احتياجات السكان وينجر عن ذلك ظهور تغيرات عمرانية ومعمارية في المظهر الحضري، تتضح ملامحها من خلال توقع المؤسسات التجارية، دور الفاعلين، وحركة التدفقات التجارية، مما يجعلها عنصرا مهيكلا للمجال وفي تعدد العلاقات التي تُميز تنظيم وتنمية المجال الحضري» **[1]**.

تعتبر مدينة قسنطينة عاصمة إقليم الشرق الجزائري، وثالث مدينة مترو بولية فيه. ذلك بفضل موقعها المتميز فقد كانت على مر التاريخ قطب اقتصادي وتجاري لكل الحضارات كذلك عاصمة إدارية للناحية الشرقية. حاليا تحتل مكانة مرموقة داخل المنظومة التجارية لولايات الوطن الجزائري، رغم بلوغ عدد سكانها 938475 نسمة حسب آخر تعداد للسكن والسكان سنة 2008، إلا أن قسنطينة وحسب المعطيات المستقاة من الموقع الالكتروني للمركز الوطني لسجل التجاري لسنة 2016، تملك ما قدره **66146** سجل تجاري **[2]**، أي أن نصيب الفرد من المحلات التجارية يقدر بمحل تجاري واحد (سجل تجاري) لكل **14** نسمة.

تأتي بذلك قسنطينة في المرتبة السادسة وطنيا والثانية على مستوى ولايات الشرق الوطني من حيث عدد السجلات التجارية [1].

تتركز أغلب الأنشطة التجارية لمدينة قسنطينة بمركز المدينة الذي يعتبر جزء من مجال دراستنا إذ تضم **51%** من إجمالي المحلات التجارية بالمدينة، وهذه البنية التجارية هي نتيجة لقاعدة تجارية تاريخية تميزت على مر السنين بضخم، تركز وتنوع للأنشطة جعلها محل استقطاب السكان من داخل وخارج المدينة. تعتبر الوظيفة التجارية من أهم العوامل المهيكلة للمجال الحضري في المدينة القديمة والمؤثرة على مظهره سواء بالسلب أو الإيجاب خصوصا في ظل التطورات والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها البلاد. تتلخص مشكلة الدراسة في إبراز أهم العوامل التي أدت إلى تطور الوظيفة التجارية في المدينة القديمة مع توضيح أثر هذه التطورات على المحيط العمراني لها.

الأهداف والمنهجية المعتمدة:

تكمن أهمية البحث في الحاجة إلى دراسة عنصر رئيسي ومهم من مكونات المدينة أي النشاط التجاري، من خلال تحليل البنية التجارية للمدينة القديمة تحليلا كميا وكيفيا بهدف التعرف على واقع النشاط التجاري فيها وإدراك أهم تطورات هذه الوظيفة والعوامل المؤثرة عليها. إن منهجية هذا البحث تنطلق من فرضية أن الوظيفة التجارية بالمدينة القديمة تطورت تطوراً ملحوظاً ظهر على عدة أشكال تقليدية وحديثة بتأثير عدّة عوامل تضافرت وكونت الشكل النهائي للوظيفة التجارية لها. لدراسة الوظائف التجارية كان لا بد من تصنيفها وترتيبها

[1] تأتي ولاية سطيف على رأس قائمة الأنشطة الاقتصادية لمنطقة الشرق الجزائري بعدد سجلات تجارية قدرها **80253** سجل ويبلغ عدد سكانها حسب آخر إحصائيات2008 ب**979 1489** نسمة، أي أن نصيب الفرد من المحلات التجارية يقدر بمحل تجاري واحد لكل **18** نسمة، وهو معدل متقارب جدا مع ولاية قسنطينة.

لبلوغ أفضل وأدق الاستنتاجات، قمنا بتقسيم هذه الوظائف إلى ستة مجموعات حسب نوع المنتوج المباع، كل مجموعة منها تتضمن فئات ثانوية كما يلي:

مواد غذائية: مواد غذائية، حلويات مرطبات، خضر وفواكه، مخبزة، بيع السمك، جزار، أعشاب، وتوابل....

لوازم الشخص: ملابس، بيع الأحذية والحقائب، لوازم الخياطة، أقمشة ومنسوجات، مواد التجميل وعطور....

تجهيزات المنزل و المكتب: أثاث منزلي،مفروشات ، بيع أزهار، لوازم الحلويات، الأجهزة الكهرومنزلية ، تجهيزات طبية، عتاد المكتب، مكتبة، كشك، .....

الحرف: صياغة، اسكافي، نجارة، خياطة، أواني فخارية وتقليدية، ساعاتي، طرز خياطة تقليدية، حلاق، بيع النحاس، ميكانيكي، .....

خدمات: مطعم، بتزيريا، هاتف عمومي، حمام، مقهى، فندق، بيع هواتف، مصور، قطع غيار السيارات.....

مهن حرة: طبيب، صيدلية، مترجم، محامي، موثق، محاسب، مكتب دراسات،مهندس معماري.....

انتهجنا في هذه الدراسة المنهج الوصفي والكمي، وفي أحيان كثيرة اعتمدنا على المنهج التحليلي الإستنتاجي المبني على أسلوب المقارنة بهدف معرفة البنية التجارية للمدينة القديمة من حيث التوزيع والتصنيف مع توضيح العوامل المؤثرة على هذا التطور.

لدراسة البنية التجارية للمدينة القديمة: اعتمدت على النتائج التي قمت باستخراجها من دار المالية لمدينة قسنطينة، عن طريق معاينة كل سجل تجاري والقيام بإحصائها وتصنيفها.

لمعرفة أهم التطورات التجارية والعوامل المؤثرة عليها: اعتمدت على مقارنة نتائج التحقيق الميداني (2016) الذي قمت به مع معطيات الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الأنشطة التجارية في المدينة القديمة لسنوات 19841976، و1993، اعتمدت كذلك على الملاحظة والتقاط الصور مع إجراء مقابلات وحوارات مع التجار وأصحاب الحرف. يغطي البحث القطاعات الموجودة في المدينة القديمة البالغ عددها أربعة وقد اعتمدنا في ذلك على تقسيم دار المالية التي قسمت المجال إلى أربعة متفشيات: القصبة، سيدي راشد، ابن باديس، سيدي لخضر مع إضافة جزء صغير تابع لمفتشية سيدي مسيد وهي منطقة سوق بومزو، هذا من شانه أن يسهل لنا مهمة استخراج المعطيات وترتيبيها لبلوغ أفضل النتائج.

الصورة 01: **تقسيم مفتشيات المدينة القديمة حسب دار المالية**، المصدر: صورة جوية + معالجة الكاتبة

I. المدينة القديمة تعاقب حضارات، موقع متميز للتبادلات التجارية:

اختلف المؤرخون في ضبط تاريخ نشأة مدينة قسنطينة، لكن المتعارف عليه هو أن الإنسان قد استقر بها منذ عصور ما قبل التاريخ نظرا لموقعها الطبيعي المتميز في وسط الشرق الجزائري والرابط بين الشمال الشرقي والجنوب. تحتل المدينة القديمة بها موقعا مركزيا تتوسط فيه المدينة بين جزء شرقي و جزء غربي و قد بنيت على صخرة من الكلس القاسي محاطة بوادي الرمال الذي يشق أطرافها و يمنحها حصانة طبيعية ،حيث اتخذها ماسينيسا ملك نوميديا عاصمة للمملكة تحت اسم"سيرتا" في القرن الثالث قبل الميلاد، فأصبحت «أهم محطة لمرور القوافل التجارية و السوق العالمية الثانية بعد قرطاج، اذ تلتقي بها معظم التيارات التجارية المتنقلة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب والعكس ، وهو الأمر الذي اكسبها طابعا مميزا في التكوين الحضاري ورسخ فيها تقاليد المدينة العريقة»**[3]**. توالت عليها بعدها الحضارات الرومانية، الوندالية، البيزنطية والإسلامية، وقد تأثرت المدينة بكل حقبة منها سواء على المستوى المجالي أو الوظيفي ولا تزال بصمات بعض من هذه الحضارات حتى الآن، مما جعلها ذات نفوذ اقتصادي وتجاري تخطى حدودها الإقليمية. في العهد العثماني اعتبرت مقرا للباي وعاصمة لبايلك الشرق، فموقعها الاستراتيجي كملتقى القوافل التجارية من كل الجهات وقربها من الموانئ البحرية التابعة لها ساعد في ازدهار نشاطها التجاري وجعل كل المبادلات التجارية تتركز فيها سواء مبادلات خارجية للدول الأوروبية وخصوصا فرنسا عن طريق الموانئ أو المبادلات الداخلية للبلدان المجاورة كتونس، المغرب، ليبيا وحتى بعض الدول الإفريقية عن طريق تجارة القوافل. اعتمدت على العمران الإسلامي لتنظيم مجالها ففصلت بين الوظيفة السكنية والوظيفة التجارية ما نتج عنه انتشار واسع للأسواق الشعبية كسوق العصر، سوق التجار والرحبات كرحبة الصوف ورحبة الجمال، كذلك تواجدت بها عدة أسواق صغيرة تسمى بالفنادق والتي يتجمع على محاورها التجار والحرفيين حسب التخصص كالجزارين، النحاسين، الحدادين، الخرازين (اسكافي)، سراجين (بيع مستلزمات الخيل)، الدباغين...، بالإضافة إلى صياغة المجوهرات والحلي، ما جعل هذا المجال يمتاز بالديناميكية والحيوية. وبعد دخول الاستعمار الفرنسي عليها ووصول المعمرين، قاموا ببناء نسيج عمراني أوروبي جديد فوق النسيج التقليدي العربي يفصلهما طريق جديد هو " الطريق الوطني " المعروف حاليا بشارع العربي بن مهيدي ما جعل هذا النسيج يتميز بالازدواجية. رغم هذه التدخلات التي طالت المجال حافظت المدينة القديمة على أسواقها ومحلاتها التقليدية التي شغلت الجزء السفلي كأهم المراكز التجارية لسكانها أما الجزء العلوي أي المجال الأوروبي الجديد فظهرت فيه مراكز تجارية جديدة كالمساحات التجارية الكبرى وبالنسبة لتجارة الجملة فتواجدت محلاتها بالمركزين القديم والأوروبي.

صورة02: **دكان لبيع مستلزمات الخيول (سراجيين)**

المصدر: www.constantine-hier-aujourdhui.fr

صورة 03: **محل تجاري في العهد الفرنسي 1880، نهج 19 جوان،**

المصدر:www.constantine-hier-aujourdhui.fr

II. تحليل ودراسة البنية التجارية للمدينة القديمة:

1. تراجع النمو الديموغرافي يعكسه تطور تجاري:

حسب آخر تعداد للسكان والسكن (2008) بلغ عدد سكان المدينة القديمة 14366 نسمة ب 4229 سكن **[4]**، مقارنة بالسنوات الماضية نلاحظ تراجع وتناقص باستمرار للسكن والسكان، إذ ما بين سنتي 1977 و2008 رحل نحو33608 ساكن بها ونقص حوالي 3502 مسكن.

السنة	1977	1987	1998	2008
سكان	47974	35690	24648	14366
مسكن	7731	6115	5477	4229

جدول (01): **تطور عدد السكان والمساكن بالمدينة القديمة ما بين 1977–2008 .** المصدر: الديوان الوطني للإحصاء (1977، 1987، 1998، 2008)

هذا التراجع الملموس في عدد السكان و المساكن ناتج عن طبيعة النسيج العتيق للمدينة و الانهيار المتواصل لبناياتها الذي أدى إلى ترحيل سكانها و استقرار أغلبهم في ضواحي المدينة ، بالإضافة لتحول بعض المساكن من وظيفتها السكنية إلى وظائف تجارية (مكاتب، عيادات...) حيث احتلت الاستخدامات التجارية اغلب المساحات السكنية للمدينة القديمة، والسبب يعود في ذلك لضعف قدرة الاستعمال السكني على المنافسة، وقدرة الاستعمال التجاري على دفع أعلى الأسعار مقارنة بالاستعمالات الأُخرى، إذ تبلغ قيمة إيجار محل تجاري متوسط المساحة في المدينة القديمة ما بين مئة ألف إلى مئة وعشرون ألف دينار جزائري للشهر الواحد، بينما الموجه للسكن ما بين ثلاثون ألف إلى خمسة و ثلاثون ألف دينار جزائري شهريا ، هذا ما يعكس التطور التجاري والارتفاع المتواصل في عدد المحلات التجارية، من خلال التحقيق الميداني(جوان 2016) بلغ مجموع المحلات التجارية الشرعية 2746 محل تجاري، بكثافة تجارية عالية 61 محل/الهكتار دون أن ننسى الانتشار الكبير للأنشطة التجارية غير الشرعية فحسب إحصائيات2009 للمخطط الدائم لحفظ القطاعات (PPSMVSS) بلغت 912 نشاط تجاري **[5]**.

2. توزيع وتصنيف المحلات التجارية للمدينة القديمة:

سنقوم هنا بدراسة النشاطات التجارية المسجلة في دار المالية والتي تملك قيد تجاري وذلك لصعوبة إحصاء وتصنيف النشاطات التجارية غير الشرعية وعدم ثباتها. بلغ مجموع المحلات التجارية ذات السجل التجاري **2746** محل ، سجلنا اكبر عدد لها في حي القصبة ب 803 محل تجاري بنسبة تقارب 30% و هذا راجع لتركز المهن الحرة بها خصوصا مكاتب المحاماة و احتوائه على سوق الخضر و الفواكه (سوق العصر) تليه مفتشية سيدي لخضر بنسبة 25,75 % رغم أنها أصغر المفتشيات مساحة إلا أنها تتوفر على 707 محل و ذلك بسبب قدم و صغر مساحة محلاته و ضيق طرقه ، أما مفتشية سيدي راشد فتحتل المرتبة الثالثة رغم كبر مساحتها ، تضم 637 محل أي بنسبة 23,19 % لتراجع عدد محلاتها سنة 2015 نتيجة الاحتراق الذي مس الأنفاق الأرضية المتواجدة قبالة ساحة الشهداء المعروفة باسم "سوتيرا" و الذي قضى على 130 نشاط تجاري بها[2] ، و أخيرا مفتشية ابن باديس التي نسجل فيها أدنى نسبة لمجموع المحلات التجارية للمفتشيات الأربعة ب 17,31% حيث تتوفر بها 475 محل تجاري أما منطقة سوق بومزو فهي صغيرة جدا نجد فيها السوق الذي يضم 121 وظيفة تجارية اغلبها لبيع الخضر، الفواكه، اللحوم و الأسماك بالإضافة لفندقين جديدين مهمين هما ايبيس و نوفوتيل اللذين دخلا حيز الخدمة سنة 2012.

لدراسة وتحليل البنية التجارية لمجال الدراسة قمنا بتقسيم النشاطات التجارية إلى ستة مجموعات كما هو موضح في الجدول الموالي:

[2] منقول عن أحد موظفي دار المالية، الغرفة الخاصة بمفتشية سيدي راشد، 2016.

التخصص	مواد غذائية	لوازم الشخص	تجهيزات المنزل والمكتب	الحرف	خدمات	مهن حرة	المجموع
القصبة	122	198	67	80	90	246	803
سيدي راشد	77	209	73	76	140	62	763
ابن باديس	40	236	30	80	43	46	475
سيدي لخضر	27	312	29	223	60	56	707
منطقة سوق بومزو	105	00	12	00	07	00	124
المدينة القديمة	713	955	211	459	340	410	**2746**

جدول (02): **تصنيف الفئات التجارية حسب مفتشيات المدينة القديمة** المصدر: دار المالية + تحقيق ميداني 2016

يتميز التخصص التجاري الموجود حاليا في مجال الدراسة بسيادة فئة لوازم الشخص بنسبة 34,78% من مجموع محلات المدينة القديمة، يوجد بها 955 محل، أكثر من نصفها هو لبيع الملابس، الأحذية، الحقائب، تليها محلات بيع الأقمشة وبيع لوازم الخياطة، وتستحوذ مفتشية سيدي لخضر على أكبر عدد من محلاتها.

رغم تراجعها في السنوات الأخيرة إلا أن التجارة الحرفية تحتل المرتبة الثانية بنسبة 16,71% من إجمالي عدد المحلات التجارية لمنطقة الدراسة، تضم أكثر من 459 محل معظمها يعود لحرفة الصياغة بنسبة 60,57% أي 278 محل، تتمركز بنهج قديد صالح ومحور 19 جوان 1965 أي شارع فرنسا وهما تابعين لمفتشية سيدي لخضر لذلك نجد أعلى نسبة لمحلات الحرف موجودة بها.

المهن الحرة تأتي في المرتبة الثالثة بنسبة 14,93% من مجموع المحلات أي ما يعادل 410 محل، وتستحوذ مفتشية القصبة على اغلب هذه الوظائف بنسبة 60% من إجمالي محلات المهن الحرة، اغلبها مكاتب محاماة حيث بلغ عددهم 185 مكتب وهذا راجع إلى النسيج الأوروبي الذي يميز هذه المفتشية، نمط البنايات الواسعة المنظمة، تقسيم غرفها المناسب والراقي لمثل هذه الوظائف. فنجد اغلب المهن الحرة تحتل البنايات الأوروبية المطلة على المحاور الرئيسية والثانوية، كما يلاحظ ارتفاع عددها مؤخرا بسبب أهمية الموقع كونه مركز المدينة. يوجد في المدينة القديمة 371 محل للمواد الغذائية أي بنسبة 13,51% من إجمالي محلاتها، تتركز بمفتشية القصبة ومنطقة سوق بومزو لاحتوائهما على سوق العصر وسوق بومزو، هذا ما جعلهما يستحوذان على أكبر عدد من محلات المواد الغذائية مقارنة بباقي المفتشيات. وتتركز أيضا هذه الأنشطة على مستوى قديد صالح بسوق الجزارين وملاح سليمان بالسويقة.

تمثل فئة الخدمات 12,38% من مجموع محلات المدينة القديمة، فهي بذلك تحتل المركز الخامس بعدد قدره 340 محل، تتركز على طول المحاور الرئيسية والثانوية كما هو الحال في نهج العربي بن مهيدي، نهج 19جوان1965، نهج ديدوش مراد، بها مجموعة من الوظائف المتنوعة اغلبها محلات للمأكولات الخفيفة كالبيزيريا، المطاعم، محلات لبيع الهواتف واكسسوارته، كلها لتلبية حاجات المتسوق، الموظف والعامل بها. بالنسبة لفئة تجهيزات المنزل والمكتب نجدها في المرتبة الأخيرة وتضم كل من أثاث، أواني، مكتبات وأكشاك...، عددها الكلي لا يتجاوز 211 محل أي بنسبة ضئيلة قدرها 07,68%، يوجد اغلبها في كل من مفتشية سيدي راشد والقصبة ب 73 و63 محل على الترتيب.

3. أنماط الاستعمال التجاري داخل المدينة القديمة:

تتجلى أنماط الوظيفة التجارية لمجال الدراسة، التي تلعب دورا هاما في ديناميكية المجال في الأشكال التالية:

-الأسواق: يوجد في منطقة الدراسة سوقين أولهما سوق العصر يعتبر من أقدم أسواق المدينة القديمة حيث كان يحمل اسم سوق الجمعة ، يحتل مساحة2100 م² تابع لمفتشية القصبة ، يقع في ساحة بوهالي السعيد بالتحديد بين القصبة و شارع ديدوش مراد، يضم 89 نشاط جلها لبيع الخضر والفواكه و تحيط به أكثر من 20 محل لبيع الأقمشة و المفروشات ، مازال مقصدا يوميا للناس حتى يومنا هذا نظرا إلى انخفاض الأسعار المعروضة به، توفره على موقف للسيارات موقعه المحاذي لمحطة téléférique أي توفر وسيلة نقل بقربه ساعدت على قدوم المتسوقين إليه من الأحياء المجاورة .

ثانيا سوق بومزو هو سوق مغطى يتواجد بالقرب من ساحة أول نوفمبر بني في العهد الاستعماري مكان رحبة الزرع ومدخل باب الواد، يضم 121 نشاط تجاري منها ما هو على شكل محل ومنها من هو معروض على الطاولات اغلبها لبيع اللحوم، الدجاج، الخضر والفواكه.

-الرحبات : هي أسواق قديمة جدا تعود للعهد العثماني تقام فيها عدة نشاطات تجارية تسمى على اختصاصها اغلبها تحول إلى مباني وطرقات مثل "رحبة الزرع" التي كانت مخصصة لبيع الحبوب ، ومنها ما يزال قائما و يعتبر سوق محوري في قلب المدينة، نذكر منها رحبة الصوف التي تتوسط حي رحبة الصوف بمفتشية سيدي لخضر بمساحة قدرها 1,5 هكتار، كانت في الفترة العثمانية مكانا مخصصا لبيع الأزهار و الورود ثم لبيع الصوف أما في الفترة الاستعمارية فكانت مكان بيع الخبازين العرب ، حاليا هي من أكثر الأماكن ترددا لاقتناء لوازم الخياطة ، الأقمشة بالإضافة للصياغة و الألبسة النسائية الجاهزة . نجد رحبة الجمال الواقعة في الجزء السفلي للمدينة القديمة تابعة لمفتشية سيدي راشد، سميت كذلك نسبة لقوافل الجمال المحملة بمنتوجات من الجنوب كالزرابي والتمور والتي تتخذ هذه الساحة للتوقف ووضع البضاعة فيها، هي سوق محظورة على النساء، تضم محلات وعدة بازارات لبيع الألبسة الرجالية وبيع الهواتف النقالة وتصليحها بالإضافة إلى اشتهارها بالمطاعم الشعبية.

-الشوارع التجارية الرئيسة: تؤدي هذه الشوارع وظيفتين الأولى هي وظيفة النقل وحركة المرور والثانية استخدام الأرض التي تنتظم على جوانبها كمحلات تجارية أهمها: محور العربي بن مهيدي الذي يضم حوالي 230 محل تجاري على طول 720 م، اغلبها محلات لبيع ألبسة ولوازم العروس، أقمشة، لوازم الخياطة، مطاعم، كما يوجد به محلات البيع بالجملة اغلبها متخصصة ببيع الأقمشة. محور 19 جوان 1965 وديدوش مراد الذي نجد فيه حوالي 217 محل على طول 620 م، اغلبها محلات لبيع الملابس، الذهب والأقمشة. محور ملاح سليمان المتفرع من محور العربي بن مهيدي، يمتد على طول 440 م، يحوي 140 نشاط تجاري منها ما هو شرعي على شكل حانوت صغير الحجم، متوسط مساحته 10م²، ومنها ما هو غير شرعي على شكل طاولات تشغل المساحات العامة، تعتبر التجارة الغذائية النشاط السائد به من جزار، بائعي التوابل، المكسرات والمواد الغذائية. قديد صالح هو كذلك يعتبر محور تجاري للمشاة لا يتعدى طوله 65 م، من بين المحاور التي حافظت على اختصاصها الوظيفي والمتمثل في الصياغة. أما محور رواق السعيد فيضم أكثر من 70 محل تجاري، رغم التغير الذي حدث سابقا في نشاطه التجاري، إلا انه حاليا عاد إلى اختصاصه الوظيفي المعهود المتمثل في تجارة الأحذية، المأكولات والألبسة.

- المساحات والمحلات التجارية: تتوزع المحلات بشكل متراص ومتسلسل في الشوارع الفرعية والرئيسية للمدينة القديمة، معظمها عبارة عن مساحات مستقطعة من واجهات الوحدات والشقق السكنية، تختلف حسب الشكل والحجم، فنميز شكلين الأول تقليدي يبرز في المباني ذات طابع تقليدي كالحانوت الذي يظهر بواجهة

متواضعة اغلبها تختص في التجارة الغذائية. كذلك نجد مساحات تجارية صغيرة جدا وبسيطة، لا تتوفر على واجهات تجارية، تدعى **النصبة**. أما بالنسبة للأشكال الحديثة فنجد **الدكان** (boutique) يوجد بالطوابق الأرضية للبنيات السكنية، مهيأ و منظم في عرض سلعه و منتجاته.**الكشك** -kiosque- محل تجاري يكون إطاره المبني مفصول مجاليا عما يحيط به، موجه في الأساس لبيع التبغ والجرائد، نجده في النسيج الأوروبي ولا يتعدى عددهم الأربعة اكشاك. كذلك لاحظنا استغلال واسع للشقق السكنية الواقعة فوق الطابق الأرضي لممارسة المهن الحرة مثل العيادات الطبية ومكاتب المحاماة....، أما آخر نوع من الأشكال الحديثة الذي ظهر مؤخرا في المدينة القديمة ومستمر بها هو **البازار** وهو شبيه بالمراكز التجارية لكنه يفتقر لبعض المكونات التي نراها في البنية التصميمية للمراكز التجارية، يقوم على مبدأ تحويل البنايات السكنية أو جزء منها إلى محلات تجارية صغيرة وأخرى كبيرة.

«**كلمة** بازار هي كلمة فارسية قديمة كانت تنطق وهاجار بمعنى أماكن الأثمان ثم أصبحت فازار، ومن ثمة انتشر هذا المصطلح وتداول في البلاد العربية وأوروبا، الهند، والصين من خلال التبادلات التجارية بين بلاد فارس والأقاليم المجاورة منذ القدم باللغة الفارسية البازار بمعنى السوق أو مجموعة المحلات التي تضم سلع وخدمات موضوع بيع وشراء، ويتوافق معنى ذلك بكلمة السوق في اللغة العربية. وفي البازار توجد السلع الغذائية،الملابس،الصيغة،التوابل والعديد من الدكاكين،الورشات وفي بعض الأحيان نجد مساكن»**[6]**.

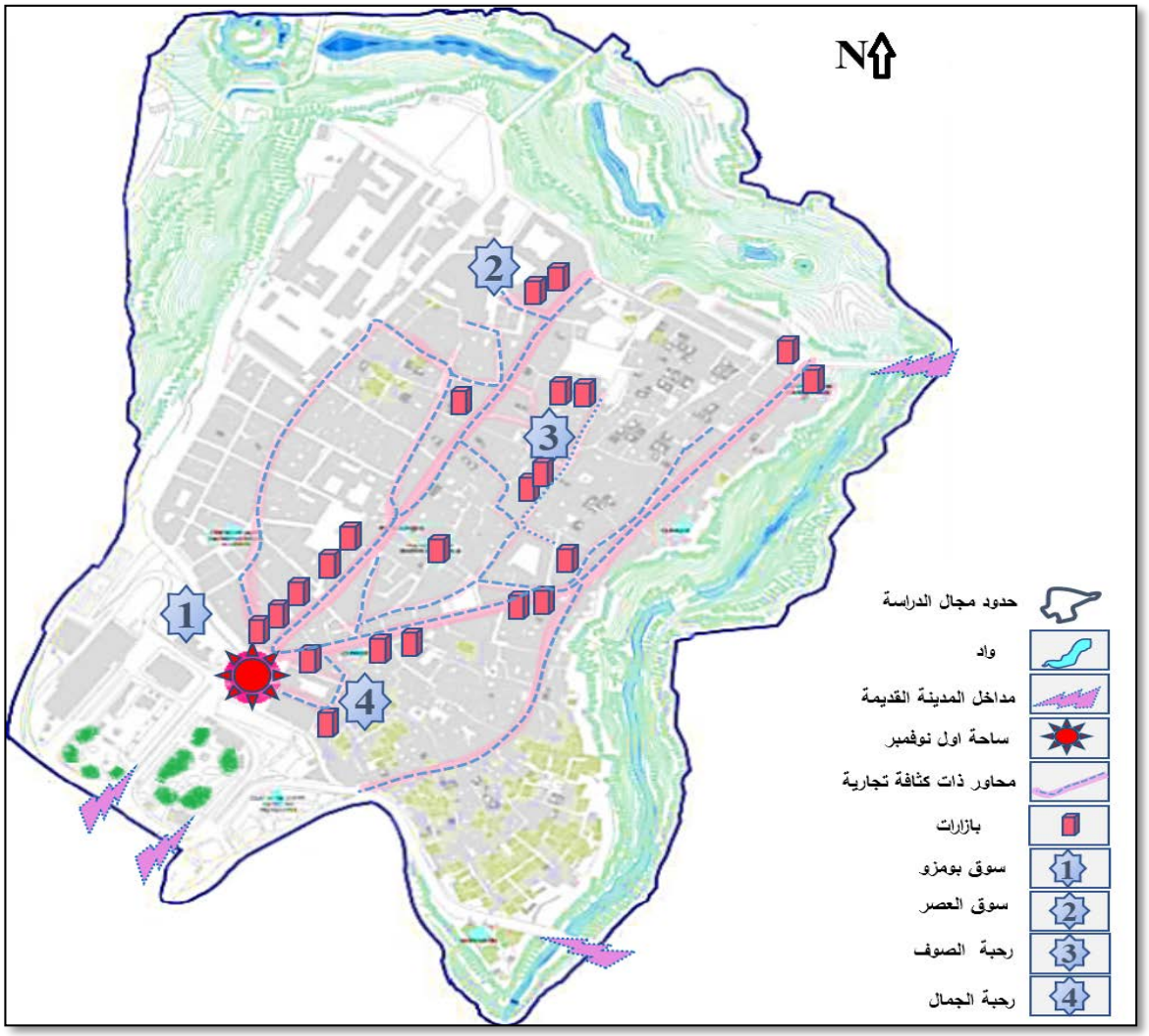

الصورة04: **الأقطاب والمحاور التجارية الكبرى للمدينة القديمة**، المصدر: «PPSMVSS 2011+ معالجة الكاتبة »

عكس البازارات الموجودة في مدن الشرق الأوسط والمدن المغاربية والتي تحوي سلع تقليدية ومنتوجات محلية، نجد البازارات في المدينة القديمة تعتمد على الملابس النسائية والرجالية الجاهزة كذلك على الحلي والإكسسوارات، ما جعلها تشبه المراكز التجارية العادية.

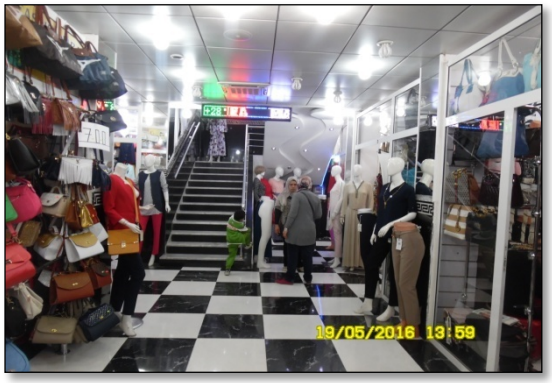

الصورة رقم 05: **من داخل بازار المنارة برحبة الصوف،**
المصدر: (الكاتبة، تحقيق ميداني 2016)

يرجع أول ظهور للبازار في المدينة القديمة إلى سنة 1995 ببازار **capital** الذي حل محل بناية قديمة مهدمة، وعرف بدوره إقبالا كبيرا للزبائن مما شجع بعض المالكين على تحويل منازلهم إلى بازارات.

فكانت الانطلاقة من بازار الأفندي برحبة الصوف سنة 2000، ولم تكتمل بعدها عشر سنوات حتى وصل العدد إلى 22 بازارا **[5]**، منها بازار نسرين برحبة الصوف سنة 2005 وبازار باب الحارة بالسويقة سنة 2008. حاليا حسب التحقيق الميداني لسنة 2016 وصل عددهم إلى26 بازارا. هذا التزايد المستمر ما هو إلا نتيجة للتحولات الاقتصادية في البلاد أي تحرر السوق والذي منح فرصة لبعض المالكين من الدخول إلى عالم التجارة من أبوابها الواسعة. وفي المقابل رغبة ملحة للتجار بمزاولة نشاطهم في مركز المدينة، خاصة أن أسعار الإيجار في البازارات تكون اقل بمقارنتها مع المحلات التجارية العادية ذات التخصص التجاري الواحد. كذلك سهولة تحويل المبنى السكني إلى محل تجاري أو بازار دون التدخل حتى في تعديله. من خلال التحليل المعماري كذلك لبعض واجهات البازارات لاحظنا تغييرا مس الواجهات القديمة، حيث يعاد تلبيس الجدران بالرخام أو الخزف مع إدخال مواد أخرى حديثة مثل الألمنيوم.

نوع التدخل	أمثلة عن البازارات المتحولة	أثاره
تهيئة الطوابق الأرضية للاستغلال التجاري	. بازار دبي بشارع 19 جوان 1965 . بازار باب الحارة بسيدي بوعنابة السويقة	. تغطية الطابع التقليدي والتراثي للمدينة القديمة وإبرازها أكثر عصرنة وحداثة . استعمال مواد بناء حديثة لطلاء الواجهات والأسقف . عرض السلع والمنتوجات على الواجهات وجدران البازار
عدة منازل حولت إلى بازارات مع بقاء نفس تفصيل الغرف	. بازار les sept الذي يشغل منزلين، يقع في الطريق المؤدي لسوق العصر بنهج الأخوة منتوري	
استغلال الطابق الأرضي للبناية وامتداد النشاط إلى الطوابق الأخرى مع إعادة تهيئتها	. بازار الفتح بنهج 19 جوان يشغل طابقين من أصل ثلاثة . بازار المنارة برحبة الصوف	
منازل تقليدية هشة أعيدت تهيئتها إلى بازارات	. بازار الأفندي بنهج قديد صالح.	
تهديم منازل تقليدية وإعادة تشييدها ببناء حديث معاصر	. بازار capital بنهج العربي بن مهيدي بازار Next بنهج رواق السعيد.	

جدول (03): **أهم التدخلات التي مست بازرات المدينة القديمة**، المصدر: (تحقيق ميداني 2016)

III. تغيرات وتطور الأنشطة التجارية (1976 /2016)

سنحاول من خلال ما سيلي دراسة ومعرفة أهم التغيرات التي مست المجال الوظيفي للبنية التجارية للمدينة القديمة والعوامل المساعدة لها، ولمعرفة ذلك اعتمدنا على معطيات تطور البنية التجارية للمدينة القديمة من سنة 1976الى سنة 2016، بالإضافة إلى التحقيقات، ملاحظات، مقابلات وحوارات مع تجار المدينة القديمة.

أ- تطور المحلات التجارية للمدينة القديمة وظهور نشاطات جديدة:

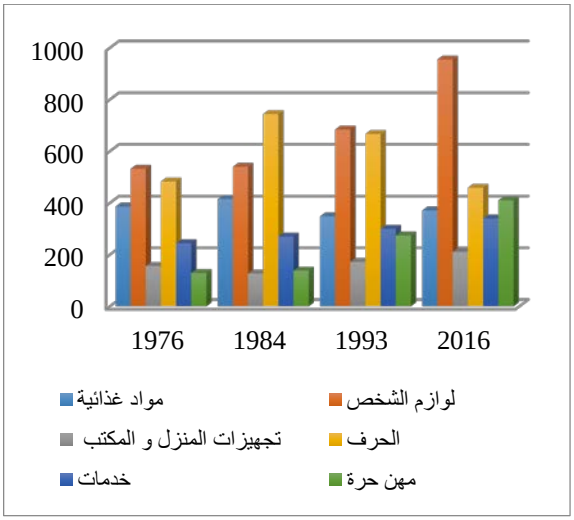

رسم بياني رقم 01: **تطور المحلات التجارية للمدينة القديمة**، المصدر: معطيات رسالة ماجستير لبديعة صحراوي **[7]** + دار المالية + تحقيق ميداني2016

انطلاقا من المعطيات المتحصل عليها لاحظنا سيادة محلات فئة لوازم الأشخاص وارتفاعها بشكل كبير خصوصا في السنوات الأخيرة حيث سجلنا زيادة كبيرة في عدد المحلات التجارية وصل عددها إلى 955 محل بعد 32 سنة، من سنة 1984الى سنة 2016 بفارق 415 محل، كذلك هي فئة الخدمات والمهن الحرة في تزايد مستمر لأهمية المجال كونه مركز المدينة القديم وكثرة الطلب لاستقطابها الزبائن من داخل وخارج المدينة. من جهة أخرى نلاحظ زيادة طفيفة لكل من فئتي تجهيزات المنازل والمواد الغذائية رغم تراجع هذه الأخيرة ما بين سنتي 1984 و1993 إلا أنها ارتفعت تدريجيا بعد سنة 1993، أما بالنسبة للتجارة الحرفية فنلاحظ تراجعها لانخفاض عددها بشكل كبير وصل إلى فارق 285 محل ما بين سنتي 1984 و2016.

بالإضافة للتطور المتزايد لحجم البنية التجارية فيها، عرفت المدينة القديمة لقسنطينة كذلك في هذه الفترة بعض التحولات البسيطة في طبيعة نشاطها التجاري، إذ بلغ عدد المحلات التجارية التي غيرت نشاطها إلى 139 محل تجاري من مجموع 2746 محل تجاري، أي ما نسبته 5,06 % من مجموع محلات المدينة القديمة، وهي نسبة ضعيفة تدل على استقرار البنية التجارية بها وبالمردود التجاري المقنع لأصحابها.

يكمن هدفنا من دراسة هذه التحولات في النشاط التجاري إلى معرفة صنف التوجهات الجديدة وإدراك الأصناف التجارية المستقطبة والأخرى الطاردة، فحسب التحقيق الميداني وجدنا أن الفئة التجارية الأكثر استقطابا هي فئة لوازم الشخص تليها فئة الخدمات أما الفئة التجارية الأكثر طردا هي فئة التجارة الحرفية. كما لاحظنا انتشار وظهور نشاطات جديدة أهمها محلات بيع لوازم العرائس من: ملابس وقفاطين، أقمشة، لوازم الخياطة التي يمارسها تجار "بني مزاب" وتتركز اغلبها في المحاور الرئيسية كنهج العربي بن مهيدي ونهج 19 جوان 1965. برغم من أن هذه الأصناف التجارية ساعدت في استقطاب الزبائن من داخل المدينة وخارجها، إلا أنها بالمقابل أدت إلى انتشار أنشطة متشابهة تعرض نفس السلع وتسببت كذلك في ندرة وتراجع بعض المهن الحرفية أهمها صناعة " القندورة القسنطينية" التي تمثل فخر وتراث أصيل للقسنطينيين فقد كانت سابقا مقتصرة على حرفيين معروفين بصناعتها وكذلك حرفيات يصنعنها في المنازل، الآن أصبحت منتشرة في جميع محلات بيع الألبسة التقليدية الجاهزة ولوازم العروس. يرجع هذا التغيير في النشاط التجاري للمدينة القديمة حسب التجار إلى: عدم مردودية التجارة الممارسة سابقا كتجارة المواد الغذائية التي هي في تراجع، عدم ملائمة

المجال لبعض أنواع النشاطات التجارية خصوصا الخاصة بتجهيزات المنزل والمكتب، لكبر حجم السلع مقابل صغر حجم المحل، ضيق الطرق، مشكل النقل وصعوبة دخول وسيلة النقل اليها. كذلك تغير في نمط استهلاك المواطن أدى إلى حتمية ظهور وظائف تجارية جديدة لتلبية رغبته، إلغاء الشراكة بين أصحاب المحل أو تغير المالك الأصلي (وراثة، بيع) **[8]**.

ب- تراجع الحرف التقليدية للمدينة القديمة:

تعد الحرفة واحدة من أهم المهن والأعمال التي تتوارثها الأجيال وجزء من التكوين والنسيج الاجتماعي للمجتمعات، كما أنها جزء من الهوية الوطنية الثقافية التي تعكس أصالة الماضي وتاريخه القديم. منذ القدم تواجدت الحرف في قسنطينة، تطورت واستمرت خلال حقب تاريخية متتالية، حيث كانت عنصر أساسي للقطاع الاقتصادي في العهد العثماني، ورغم أنها عاشت تحولات كبيرة في الفترة الاستعمارية بسبب القوانين الفرنسية المطبقة والتغيرات العمرانية بها إلا أنها صمدت في وجهها، لكن مع مرور الوقت ومع التحولات الاقتصادية والاجتماعية اندثرت اغلب هذه الحرف كالاسكافي، الساعاتي، صانعي الأقمشة والجلود. يعود سبب زوالها الى نقص الطلب، كبر سن الحرفيين، ابتعاد الشباب عن مزاولتها بحثا عن الربح السريع وإهمال المسؤولين للمهن التقليدية.

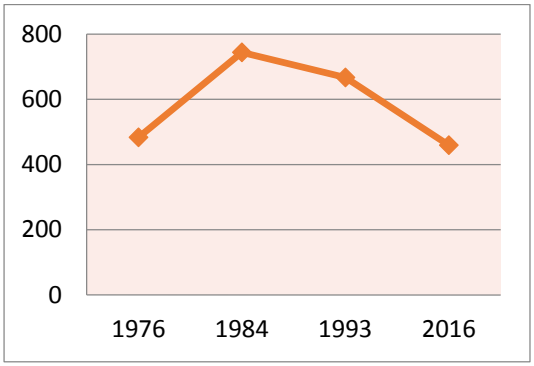

رسم بياني رقم 02 : **تطور الحرف التقليدية للمدينة القديمة (1976. 2016)**، المصدر: معطيات رسالة الدكتوراه بن عباس **[9]** + تحقيق ميداني 2016

رغم تعرض اغلب الحرف التقليدية إلى احتمالات الاندثار والزوال، فإن هناك من هو محافظ على مكانته إلى وقتنا هذا كالصياغة والطرز، إذ تعد قسنطينة منذ القدم عاصمة للفتلة، الذهب والنقش على النحاس. من خلال الرسم بياني الموالي نلاحظ ارتفاع عدد ورشات الطرز من 4 إلى 30 ورشة ما بين سنتي 1976 و2016 هذا راجع إلى تمسك السكان بهذه الحرفة، فلا تستغني النساء في الأعراس والمناسبات عن لبس القندورة القسنطينية واللباس المطرز، وساعدها على ذلك تطور آلات الطرز والإنتاج التي سهلت مهمة الحرفي والحرفيات في منازلهن وجنت لهن الربح الوفير. كذلك هي حرفة الصياغة فحسب معطيات المخطط نلاحظ تضاعف عدد ورشاتها ما بين سنة 1976 و1993 من173 إلى 311 ورشة خلال 17 سنة، هذا لكونها ثقافة متجذرة في أعماق المجتمع القسنطيني بفضل الإقبال الكبير للنساء آنذاك على اقتنائها سواء لادخار أموالهن تحت شعار "الحدايد لشدايد" او لتجهيز العروس بالمحزمة، السخاب، الخلخال، حيث كانت في متناول الجميع آنذاك. اما حاليا و المتأمل لأزقة الرصيف، رحبة الصوف و مدخل حي الجزارين المتواجد بها اغلب محلات الصياغة القديمة و الجديدة المتوارثة عن الآباء و الأجداد يلاحظ تراجع الإقبال و نفاذها من الزبائن ، فحسب تجارها فان هذا العزوف راجع إلى غلاء المعيشة و ضعف القدرة الشرائية للمواطن جعلته يبحث عن البديل كالبلاكيور و الفضة ، سياسة التقشف و نقص المادة الأولية إلى جانب منافسة "الدلالة"[3] لسوق الذهب و كسرهم للأسعار ،كلها مشاكل أدت إلى تفكير الحرفي بتغيير النشاط واعتزال الصياغة رغم حبه لها ، و هذا ما يفسر انخفاضها سنة 2016 إلى 278 نشاط بفارق 33 محل و هو رقم مرشح للارتفاع في ظل كل هذه الظروف.

[3] الدلالة هم صاغة غير شرعيين يعترضون طريق النساء ويعرضون عليهن اقتناء مجوهراتهم التي ترصع أذرعهم وأياديهم وأصابعهم بإلحاح وبأسعار يقولون إنها منخفضة.

إضافة للحرفتين المذكورتين سابقا اشتهرت قسنطينة كذلك بحرفة النقش على النحاس التي تمتد جذورها للحقبة العثمانية ،فمنذ القدم هناك ارتباط وثيق بين الأواني النحاسية والأسرة القسنطينية فلا يخلو بيت أي عائلة من النحاس و لا تزف العروس إلا بعد أن تقتني حاجتها من الأواني النحاسية كالسينية،المحبس، المرش و غيرها ، فكثرة الطلب جعلت هذه الحرفة في تحسن ما بين سنة 1976 و 1984 حيث ارتفع عددها من 27 ليصبح 55 ورشة ، لكن رغم ارتباط هذه الحرفة بتاريخ وتراث وأصالة المنطقة، وتوارثها الأبناء جيلا بعد جيل، إلا أنها تراجعت قليلا سنة 1993 إلى 45 ورشة بسبب صعوبتها ،ارتفاع أسعار موادها الأولية و كبر سن الحرفيين.

في السنوات الأخيرة كذلك شهدت تراجع كبير حيث بقي 4 ورشات فقط سنة 2016 وهذا راجع إلى تحويل اغلب هذه الورشات من طرف البلدية إلى خارج المدينة القديمة بالتحديد إلى حي باردو مع تراجع الإقبال على المنتجات النحاسية لتعويضها بالأواني الصينية المستوردة الزهيدة الثمن.

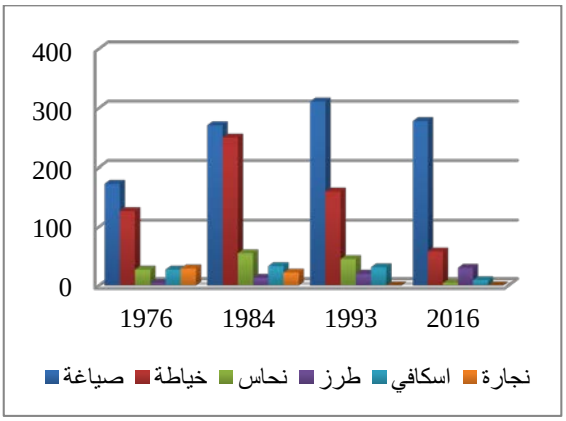

رسم بياني رقم03: **تطور أهم أنواع الحرف التقليدية للمدينة القديمة (1976. 2016)**، المصدر: معطيات رسالة الدكتوراه بن عباس **[9]** + تحقيق ميداني2016

ت- تدهور تجارة الجملة:

تعتبر فئة لوازم الأشخاص أكثر الأنشطة الموجودة في تجارة الجملة خصوصا تجارة الأقمشة، إذ يتركز معظمها في شارع العربي بن مهيدي وديدوش مراد، نلاحظ في السنوات الأخيرة تراجع متواصل لها فمن127 نشاط سنة 1976 إلى 20 نشاط سنة 2016، وهذا راجع إلى نقل اغلب هذه الأنشطة خارج مركز المدينة نحو الاحياء المجاورة لان هذه النشاطات تتطلب مساحات ومحلات واسعة لسهولة تنقلها عكس المدينة القديمة التي تتميز بضيق وصغر محلاتها واكتظاظ شوارعها.

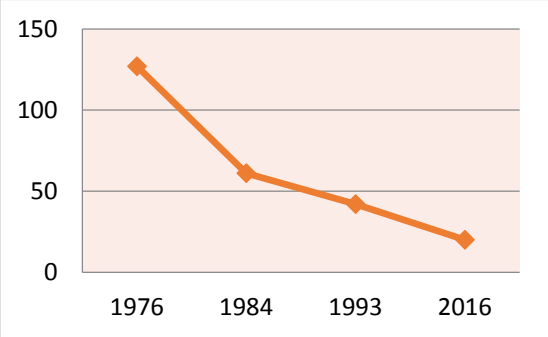

رسم بياني رقم04: **تطور تجارة الجملة للمدينة القديمة (1976. 2016)**، المصدر: معطيات رسالة الدكتوراه بن عباس **[9]** + تحقيق ميداني 2016

ث- تطور التجارة غير الشرعية:

رغم الانتشار الكبير والواسع للمحلات التجارية القانونية والشرعية إلا أن التجارة الغير شرعية موجودة وبقوة في مجال الدراسة. تعتبر التجارة الغير شرعية كل نشاط غير منظم خارج عن الإطار القانوني ولا يملك سجل تجاري، نلاحظ انتشارها وتطورها بشكل كبير في المدينة القديمة، خصوصا بعد سنوات التسعينات نتيجة الفقر، البطالة، صعوبة دخول السلع الأوروبية وغياب الرقابة القانونية. يشغل هذا النوع من التجارة المساحات العامة المجاورة للمحلات التجارية اغلبها على شكل طاولات، نجدها معروضة كذلك في الطرق، الأزقة القديمة، الأرصفة وحتى الجدران، بلغ عددها 912 نشاط تجاري سنة 2009[5]، مما شوه المنظر الخارجي لبنيات المدينة القديمة، خلق مشاكل في المرور من ازدحام وصعوبات في حركة السير، أدت إلى التعطل الوظيفي لمركز المدينة التاريخي. هذا ما نلمسه خصوصا في المحور الرئيسي 19 جوان 1965 الذي يعرف تدفق عالي للراجلين مع كثافة تجارية عالية.

الصورة رقم06: **مدخل بناية في شارع 19 جوان 1956، مستغل لعرض مختلف السلع التجارية.** المصدر : (الكاتبة، تحقيق ميداني 2016)

الصورة رقم07: **تجارة غير شرعية باستغلال ممر المشاة لعرض مختلف المنتجات، نهج 19 جوان 1965**. المصدر : (الكاتبة، تحقيق ميداني 2016)

IV. تحليل العوامل المؤثرة في تطور البنية التجارية للمدينة القديمة:

« رغم مغادرة بعض الوظائف الإدارية كمقر الولاية، مديرية مسح الأراضي، مديرية النقل مؤخرا إلى خارج مركز المدينة»**[10]** ، بقيت المدينة القديمة تلعب دورها كقطب تجاري مهم داخل مدينة قسنطينة و خارجها مع احتفاظها بأغلب الأنشطة التجارية لها، تعود هذه الهيمنة التجارية لتضافر عدة عوامل أسهمت مجتمعة وبنسب متفاوتة في تحديد قيامها و تطورها وان أهمية كل عامل من تلك العوامل تختلف من مكان إلى أخر. تبين من خلال الدراسة الميدانية أن موقع هذا المركز كونه يتوسط المدينة و همزة وصل بين جميع أحيائها أدى إلى سهولة الوصول إليها كذلك للعامل التاريخي المتمثل في وجود نواة تجارية قديمة دور أساسي في توسع هذه الوظيفة التجارية على حساب الاستعمال السكني باستثناء الجهة السفلية الواقعة جنوب شارع ملاح سليمان لانهيار اغلب مبانيها، انتشار المساحات الشاغرة بها و تدهور إطارها المبني ، في حين برز عامل الرغبة الشخصية مع توفر القدرة المالية والسعي لتحقيق الربح في ظهور الاستعمال التجاري وتوسعه نتيجة تحرر السوق في البلاد ، دون أن ننسى تأثير عامل آخر و هو ظهور وظائف تجارية جديدة و مستقطبة على حساب الحرف و الأنشطة التقليدية القديمة فيها و ذلك تماشيا مع طلبات المواطن و تغير نمط استهلاكه .

في حين ظهرت هنالك عوامل غير تقليدية أثرت على تطور البنية التجارية تتمثل في غياب سلطة القانون مع توفر القدرة المالية التي دفعت بعض الأشخاص إلى تحويل مبانيهم السكنية إلى محلات تجارية دون مراعاة المعايير التخطيطية والطابع التقليدي والتراثي للمدينة القديمة في ظل الندرة العقارية لتخصيص مناطق أنشطة تجارية جديدة. كذلك انتشار فكرة البازار وأسعار إيجاره المتدنية مقارنة بالمحل التجاري أو الدكان مع سهولة تحويله وفي بعض الأحيان دون حتى التدخل في تعديله. بينما كان لتردي الأوضاع المعيشة وارتفاع نسبة البطالة وسعي السكان للبحث عن مصدر رزق يوفر لهم لقمة العيش عامل أساسي في انتشار التجارة غير الشرعية في الطرق، الأرصفة وعلى الطاولات، هذا كذلك ما أنعش التجارة في المدينة القديمة.

الخاتمة:

تمثل المدينة القديمة لقسنطينة قطب تجاري رئيسي والقلب النابض لها، إن قيام تجارة مزدهرة وناجحة في هذا المركز التقليدي رغم ظهور عدة تجمعات تجارية حديثة متفرقة على أطراف المدينة انعكاسا للمستوى المعيشي المتقدم للسكان مع تغير مفهوم التسوق، يؤكد توفر عدة عوامل أسهمت في تطورها منها العامل التاريخي، التغيرات الاقتصادية كتحرر السوق، التغيرات والظروف الاجتماعية، تغلب الاستعمال التجاري على منافسة الاستعمال السكني وغياب الرقابة القانونية. بينت الدراسة وجود تحولات في طبيعة النشاط التجاري مع ظهور نشاطات جديدة مستقطبة كمحلات بيع لوازم العروس، محلات المأكولات السريعة، في المقابل شهدنا

اختفاء وتراجع لأغلب الحرف التقليدية التي لا طالما شكلت الهوية والثقافة القسنطينية.

لم تقتصر هذه التحولات على الجانب الوظيفي فقط بل ترك هذا التطور التجاري بصمة وأثرا واضحا على المجال الحضري والعمراني لمنطقة الدراسة، من خلال انتشار وتوسع ظاهرة البازارات التي أصبحت تهدد الخصائص السكنية العمرانية التاريخية، تشويه صورة المدينة القديمة نتيجة استغلال الأرصفة، الطرق وحتى الجدران في التجارة غير الشرعية لعدم تطلبها أسعار إيجار مكلفة بل اغلبها يكون مستغلا بالمجان. أدى هذا التطور المتزايد لحجم البنية التجارية إلى تشبع وعدم قدرة مركز المدينة التقليدي على استيعاب أنشطة تجارية جديدة.

رغم كثرة الدراسات التي تناولت الحفاظ والحماية على المدينة العتيقة لقسنطينة كونها تراث وطني محمي، إلا أن الجانب التجاري لم يأخذ حقه الكافي منها، وأخرها كان المخطط الدائم لحفظ القطاعات المحفوظة (PPSMVSS)[4] الذي وضع بعض الاقتراحات والحلول للحد من مشاكل التجارة مع محاولة تنظيميها، إلا أن هذا الأخير بقي حبرا على ورق شكليا دون التنفيذ، وهو ما يدل على غياب المفهوم الحقيقي للتعمير التجاري[5] في اغلب مخططات ودراسات التهيئة والعمران في الجزائر.

[4] (Plan permanent de sauvegarde et de mise en valeur du secteur sauvegardé) جاء ضمن القانون 04/98 المتعلق بحماية و تثمين التراث الثقافي ، و كون المدينة القديمة لقسنطينة مصنفة ضمن القطاعات المحفوظة ، فالمرسوم التنفيذي 323/03 يتضمن إعداد مخطط لحماية المواقع الأثرية و المناطق المحمية معادل لمخطط شغل الأراضي ، يهدف لوضع اقتراحات مساعدة من شانها إعادة تقييم و تحسين صورة المدينة القديمة بالخصوص الحفاظ على تراثها، تماشيا مع السياسة المحلية و الوطنية في إطار الاستدامة.

[5] يعرف على انه مجموعة مقاييس تقنية، إدارية ومالية تسمح بتطوير النشاطات التجارية، متناسق وفعال مع الاختيارات الأخرى للتعمير كاستعمالات الأرض، توزيع الأحياء السكنية، النقل، المرافق العمومية.... الخ **[11]**

المصادر والمراجع:

[1] فؤاد بن غضبان،2016، «تحليل الارتباط المكاني لتوزيع الأنشطة التجارية بالمدن الجزائرية الكبرى» ، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، المجلّد9 ، العدد 2.

[2] (www. CNRC.org) ،2016،موقع خاص بالمركز الوطني للسجل التجاري يوضح عدد السجلات التجارية على مستوى ولايات الجزائر.

[3] محمد الهادي لعروق,1985. «–مدينة قسنطينة– دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية»، دار البعث قسنطينة.

[4] الديوان الوطني للإحصائيات، نتائج التعداد العام للسكان والسكن، 2008.

[5] BET J. Kribeche, (2010) «PPSMVSS de la vieille ville de Constantine, phaseII:" Etude historique et typologique et avant- projet du ppsmvss" Constantine, p110

[6] نور الدين عنون2012«دور البنية التجارية في تنظيم المجالات الحضرية،حالة مدينة باتنة»، رسالة دكتوراه منشورة، قسم التهيئة العمرانية،كلية علوم الأرض،جامعة قسنطينة.

[7] Sahraoui,B. (1988), «La médina de Constantine, héritage et vitalité économique», Magister, université Mentouri Constantine.

[8] محمد إلياس سراج، 2002. «المركزية التجارية وتراتب الأحياء بالنطاق الغربي لمدينة قسنطينة»، مذكرة ماجستير غير منشورة، قسم التهيئة العمرانية،كلية علوم الأرض،جامعة قسنطينة.

[9] Benabbas, S. (2002). « La réhabilitation des médinas maghrébines : foncier procédures et financement », doctorat d'état, Département d'architecture et d'urbanisme de Constantine.

[10] Benidir, F. (2007) « Urbanisme Et Planification Urbaine, Cas De Constantine. » Doctorat d'état, Université Mentouri Constantine.

[11] Merlin, P, Choay, F. et al. (2005). « Dictionnaire de l'urbanisme et de l'aménagement ». Paris : Presses Universitaires de France.